الفصل الأول

أسباب القصور فى منهج التفكير العربى

الاعتراف بالخطإ هو أولى خطوات الإصلاح؛ وتجنب الهروب من مواجهه الحقائق هو الوسيلة المثلى لوضع خطط الإصلاح الجبرية علينا أن نعترف بحقيقة بديهية، شئنا أم لم نشأ، لقد بات معروفًا عن العرب على المستوى الإنساني العالمي، وفي جميع مراكز البحث الاجتماعي العالمية، أنهم على اختلاف مللهم ونسلهم، أنهم ما زالوا قومًا متفرقين، تجمعهم جاهلية التعصب والعصبية والاستبداد السياسي والفكري ونزعات التسلط والفوقية، ولم تتأثر عقولهم وهممهم بما وصل إليه العالم من حولهم من تقدم مذهل في جميع العلوم الإنسانية والعلمية والاجتماعية، لأن غاية ما يسعون إليه هو استهلاك ما ينتجه الغرب من كل شيء حتى ملابسهم اليومية.

إن خير دليل على أن العرب يتيه غالبيتهم في جهلهم وجاهليتهم، أن البيئة العربية بيئة طاردة للعلماء والإصلاحيين والشرفاء، وبرز من هولاء كثير من العلماء العرب الذين نبغوا في جميع العلوم في مراكز ومعاهد البحوث وجامعات الغرب، ونالوا أرفع الجوائز والأوسمة العالمية والدولية في الطب والفيزياء والجيولوجيا وعلوم الفضاء وغيرها من العلوم السياسية والاقتصادية وأصبحوا علامات في المسيرة الإنسانية نحو التقدم، ومنهم من ملك سلسلة من الفنادق العالمية، ومنهم من ملك أكبر المحلات التجارية في بريطانيا، ومنهم من وضع نظام التأمين الصحي للولايات المتحدة الأمريكية، وكثير منهم لا يتسع المجال لذكره، وأغلب هؤلاء العلماء كانوا عصاميين لم ينالوا شيئًا من أموال النفط العربي ولا منحوا شيئًا من الجامعات التي خرجوا منها، بل نالهم من الإحباط من أقرانهم ورؤسائهم ما دفعهم إلى الرحيل إلى الغرب، وكاتب هذه السطور هو مثل حي للذين اغتربوا وتركوا وطنهم الأصلي مصر عندما وصل الإحباط إلى أقصاه، والظلم إلى مداه، وها أنذا أعود مرة أخرى إلى وطني الحبيب محاولًا كسر دائرة التخلف وقيادة ثورة التنوير الفكري خاصة بعد ثورة ٢٥ يناير التي

قامت ضد الظلم والبغي والاستبداد.إننا كمغتربين، وبالرغم من نجاحاتنا في الغرب، فإن معظم المغتربين من العلماء والمفكرين العرب لم يتنكروا لأوطانهم، ويحاولون بكل جهدهم أن تستفيد أوطانهم الأصلية من أبحاثهم العلمية وتطبيقاتها، هؤلاء العلماء من المسلمين والمسيحيين العرب نزعوا من عقولهم هذا التبلد العربي البائس، وأخذوا بالأسباب وطرحوا وراء ظهورهم العصبيات العرقية والمذهبية وأخذوا بلب الدين وجوهره، فنالوا درجة الإيمان التي تبدو واضحة في أفعالهم وسلوكياتهم وأحاديثهم، فالعالم منهم لا يقارن بألف سياسي عربي فاسد، وألف عسكري مستبد بشعبه، وألف شيخ من شيوخ السحر والشعوذة، وألف شيخ من شيوخ الفضائيات المتأسلمين والذين لا يمتون إلى صحيح الدين بصِلة، وألف مفكر من مفكري السلطة وفناني ركاب الاستبداد والذين يسمون أنفسهم بالمبدعين، وألف شاعر من شعراء الأمراء والسلاطين والحكام، لأن العالم المؤمن الصادق خير من ألف عابد، وليس له بين العرب قائمة ولا مقام ولا مكان إلا الهذيان باسمه وعلمه ذرًّا للرماد في العيون.

لقد ذكر الكاتب الجليل عبد الحميد الأنصاري في مقالة قيمة عن نقد العقل المسلم أن من تداعيات الصدمة الحضارية بالغرب المتفوق بروز تساؤلات فكرية كبيرة، لماذا تفوق الآخرون علينا؟ لماذا تقدموا وتخلفنا؟ ما عوامل الخلل؟ كيف النهوض؟ تعددت الإجابات عبر قرن ونصف بتعدد اتجاهات المفكرين ومشاربهم، بداية بالرواد الأوائل: الطهطاوي، الكواكبي،الأفغاني، محمد عبده، وكانت الصفة الغالبة عليها، الصفة الدفاعية ضد الآخر المتغلب. ففي مطلع القرن الماضي أصبحت التساؤلات أكثر إلحاحًا وشكلت تحديًا كبيرًا للفكر العربي وتطلبت استجابة مختلفة، وبرز في سماء القرن العشرين جهود كواكب لامعة، أبرزها المشروع الإصلاحي للإمام محمد عبده (ت ١٩٠٥)، الذي تمحور حول إصلاح نمط التفكير الديني، وفي الثلث الأخير من القرن الماضي ظهر مفكرون أصحاب مشاريع فكرية متكاملة (تيزني، حنفي، أركون، الجابري، زكي نجيب محمود، فؤاد زكريا، محمد جابر الأنصاري، نصر حامد أبو زيد، وغيرهم). كانت أولى الإجابات تركز على أن علة التخلف ابتعاد الأمة عن دينها، فلا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، أو ما يعرف بالعبارة المسيسة الشهيرة «الإسلام هو الحل»، بينما رأت الإجابة الثانية أن التأزم السياسي المتمثل في غياب الديمقراطية، هو الداء المزمن بسبب عجز العرب عن الاتفاق على آلية سياسية تضمن الانتقال السلمي للسلطة، وذهبت إجابة ثالثة إلى أن نظامنا التربوي والتعليمي هو العلة في الإخفاق، ورأت إجابة رابعة أن تخلف العرب يكمن في قصورهم العلمي والتقني لأن التحديات التي واجهتهم

خلال القرون الخمسة الأخيرة كانت تقنية، ولم تجد استجابة سليمة منهم، وهناك من رأى في الاشتراكية العربية حلًا، واستراح قطاع كبير إلى تحميل الاستعمار مسؤولية التخلف، واتجه آخرون إلى أن العلة كامنة في العقلية العربية لافتقادها الروح النقدية والنظرة التاريخية، كما يقول الجابري في مشروعه الفكري الضخم «نقد العقل العربي» ولعل الجابري هو الذي بلور وطرح مصطلح «العقل العربي» في ساحة التداول الفكري بدءًا من ١٩٨٤، فراج وانبهر به كثيرون حتى بان زيفه، فالعقل بمعنى القدرة الذهنية واحد لدى البشر؛ ولذلك أضفت لعنوان هذا الكتاب «ثورة العقل العربي والإنساني»، فالعقل وهو أعدل الأشياء قسمة بين البشر كما ذكر (ديكارت)، فلا يوجد عقل عربي أو إسلامي بإزاء عقل غربي أو مسيحي، ولا يمكن أن يكون للعرب عقل مختلف عن عقول بقية الشعوب، لكن الشعوب الإنسانية تختلف في طرق تفكيرها وفي فاعليه هذا التفكير فى مواجهة التحديات؛ وقد رصد كثير من المفكرين جوانب القصور فى منهج التفكير العربى فى مواجهة التحديات الداخلية والخارجية بسبب النزعات المؤثره فى كفاءته:

١ ـ النزعة إلى الماضى

العقلية العربية أسيرة الماضى المجيد؛ تعيد إنتاج مقولات السابقين وتبحث فى الماضى حلولًا لمشكلات الحاضر

٢ ـ النزعة الذكورية

العقلية العربية محكومة بإرث ثقافى، ينتقص من المرأة ويؤمن بسمو الرجل على المرأة.

٣ ـ النزعة التقديسية للتاريخ

ينتقى من التاريخ اللحظات المضيئة؛ ويغيب ألف عام من الصراعات والانقسامات والظلام.

٤ ـ النزعة الاقصائية

الفكر العربى فكر إقصائى للآخر اعتقادًا بأنه يملك الحقيقة المطلقة.

٥ ـ النزعة الارتيابية فى الآخر

تحتل نظرية المؤامرة والتآمر العالمي علينا المساحة العظمى من تفكيرنا.

وتعظيم محاسنها فى مقابل الانتقاص من الآخر والمغالاة فى سلبياته.

وعلى الجانب الإسلامى؛ فقد قام الكثير من الفقهاء، وشيوخ السلطة على مر عصور الخلافة الإسلامية بدءًا من الدولة الأموية حتى الآن بعملية تغييب طويلة الأمد للعقل العربى؛ هذا العقل الذى هو أعظم نعمة بعد الإيمان؛ فالدين ـ عمومًا ـ جاء لتحرير العقل لكن ورثة الدين حجروا عليه بتضييق نطاقه فى الحفظ والتلقين، وبتقديس السابقين من البشر؛ ومعروف أن تقديس عقل غيرك معناه إلغاء عقلك، وبالتخوف المفرط من الوقوع فى الخطأ الاجتهادى؛ وقد ظهرت هذه الانحرافات فى أعراض رئيسية؛ من صورها النفور من الحوار مع المخالف؛ والتعميم فى الأحكام؛ والحكم على النوايا؛ واتهام الآخر؛والانشغال بالشعارات وشخصنة المبادئ والأفكار،والاهتمام بالماضى على حساب الحاضر والمستقبل؛ والتفكير الأحادي؛ والمبالغة فى إبراز مزايانا فى مقابل إبراز عيوب المخالفين؛ وعدم تقدير العلوم الحديثة؛ والخلط بين الديني والبشرى والثوابت والمتغيرات.

موقف الحركات الإسلامية من أزمة العقل العربى

الحركات الإسلامية، وإن استطاعات إخراج الدين من نطاق الإصلاحات الجزئية إلى نطاق الإصلاح العام، فإنها عالجت الأمر بطريقة ساذجة سطحية؛ بتقرير أحكام جامدة على الحياة الحديثة وبمحاولة السطو المسلح على السلطه لإقامة بما يسمى حكم الله؛ فأفسدوا الدين وأفسدوا السياسة معًا؛ وهى وإن جددت التفكير السياسى الدينى؛ فإنها من الناحية العقلية والمنهجية بقيت تقليدية متعصبة؛ تقدس التراث وتعادى الفكر الإنسانى؛ كما أن هذه الحركات الإسلامية تمتلك الكثير من المفاهيم المشوشة على سبيل المثال: اختلاط مفهوم الجهاد بالعنف؛ وطغيان مفهوم الحكم الإسلامى؛ ثم أخيرًا تقسيم المجتمع إلى جاهلى وإسلامى. إن هناك الكثير من المظاهر التى تؤكد الأزمة التى يعيشها العقل العربى وخاصةً المسلم؛ النظرة الخاطئة إلى تاريخ العالم باعتباره صراعًا بين الحضارات؛ لذا علينا أن نصارع الحضارة وتعطل عمل العقل خوفًا على تحمل الوحى؛ ثم شيوع وسائل تخدير العقول مثل: حشو الذهن؛ الوصاية على الآخرين؛ شيوع سياسة ردود الافعال؛ النظرة الأحادية والسطحية؛ عدم التمييز بين تعاليم الدين واجتهادات الفقهاء؛ إهدار مقاصد الشريعة؛ السلبية العامة تجاه الفكر الإنسانى؛ ورفضه بحجة أن عندنا الكمال؛ والتشدد فى طقوس ومظاهر الدين على حساب الأخلاق. لقد

بدأ التدهور فى العالم العربى والإسلامى فى القرن الخامس الهجرى، وسيطر على معظم مظاهر الحياة، وأنتج الجمود الفكرى؛التقليد المذهبى؛ نبذ العلوم الطبيعية انعدام الاستقرار السياسى؛ وذلك يرجع إلى التقديس غير الواعى للتراث الذى كلف المسلمين ٥٠٠ عام من الجمود والانحطاط والظلام الفكري، إن الله فرض قدسية دينية ولا قدسية لاجتهادات البشر؛ ولكن ماقام به ورثة الدين إنهم سجنوا الدين وسجنوا الإنسان بإخضاعهما لتراث القرون السابقة وإرهاب المخالفين بسيف «الإجماع» فأُعدم المجتهدون وتغلَّب المقلدون وكثر التعصب. إن التقديس المفرط للتراث وإلى كل ما له صلة بالدين قد طغى على العقل الإنسانى العربى؛ إن من عيوب العقلية المتدينة غير الراشدة وغير المتعلمة استعدادها للتقديس بغير حساب؛ ومع التقديس يكون التسليم المطلق؛ ومن عيوبها نتيجة لما سبق؛ قابليتها الكبيرة للتشدد فى الدين بغية التظاهر بالالتزام المفرط به؛ وهذا يؤدى إلى ضعف النظر وعدم البحث ووزن الأمور بالطريقة الصحيحة؛ لذا فإننا إذا أردنا تحريرهذه العقلية؛ فيجب تحريرها نفسيًّا من التقديس المفرط وإلا استمر العقل العربى المسلم بلا إبداع.

ولكى نتعمق فى جذور مشكلة ثقافة التخلف الاجتماعى التى أثرت على العقل العربى والإنساني؛ علينا أن نبحر قليلا فى دراسات التخلف الاجتماعى العالمية من منظور سيكولوجية الإنسان المقهور؛والتى سبق أن ألمحنا إلى الظروف المحيطة بالإنسان العربى من استبداد وظلم وقهر لمئات من السنين أثرت بالعقل على تكوينه الفكرى والعقلى؛ علها تزيدنا إيضاحًا فى أسباب قصور العقلية العربية.

إن الدراسات العلمية الحديثة، التى قامت بدراسة حالات التخلف الثقافى والفكرى لأفراد بعض الشعوب، كانت تركز جهدها الأساسى فى فحصها لمشكلة التخلف على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات قيد الدرس؛ وأهملت بشكل واضح أهمية دور الفرد فى هذه العملية، وبالتالى أهملت دراسة العقلية التى تقف وراء الكثير من ظواهر التخلف، وبالنتيجة أهملت دراسة الذهنية المتخلفة وخصائصها؛ والدور الحاسم الذى يلعبه الفكر فى تقدير الواقع؛ وتكوين الأحكام. وهكذا؛ فإن أغلب الدراسات التى تمت على حالات الأفراد فى المجتمع العربى لم تكن تمس جوهر ظاهره تخلف العقلية العربية، بل إنها أسهمت في تكريس التخلف ولم تسهم فى خلق وعى نوعى يساعد على إصدار أحكام صحيحة أو قريبة من الصحه على مشكلة التخلف العربي بأطرافها الثلاثة وهى: التخلف كواقع اقتصادي، والواقع الاقتصادى فى علاقته بواقع التخلف الاجتماعى؛ والواقع الاجتماعى كممارسات وأفكار

ودور الذهنية المتخلفة التى تغذى هذا الواقع المتخلف؛ وتقاوم بما أوتيت من قوة تغييره نحو الأفضل؛ باعتباره لايناسب الوضع المريح الذى تجد فيه العقلية المتخلفة الطمأنينة والراحة الزائفة؛ غير التواقة إلى خوض مغامرة التغيير. إن مقاومة التغيير والركون إلى الراحة الذهنية الزائفة، والقهر والاستبداد المحيط بالعقلية العربية وشعوبها قد سبب ضررًا بائنًا لهذه العقلية. وأنا أرجو من القارئ الفاضل أن ينتبه، ويدرك حجم الضرر الذى لحق بنا كبلدان وشعوب تعرضت للكثير من عمليات القهر والهدر؛ وبالتالى أصبحنا يقهر بعضنا بعضًا؛ ونمارس كل أنواع الهدر لطاقتنا وقدراتنا وكرامتنا الإنسانية ونتهادر فيما بيننا؛ الأمر الذى سبب لنا عجزًا لا يمكن للعين الفاحصة أن تخطئه بأى شكل من الأشكال. إننى ككاتب أهدف من كتابتى هذه الدراسة فى الإسهام فى خلق وعى نوعى للآليات التى تتحكم فى قهرنا وهدرطاقتنا وكرامتنا الإنسانية؛ وتسهم فى تخلفنا وعجزنا عن حل مشكلاتنا والدوران فى حلقات مفرغة ومضللة فى محاولاتنا المتكررة للخروج من أزماتنا.

إن معظم علماء الاجتماع يصفوا العقلية أو الذهنية المتخلفة بالتخبط والفوضى والعشوائية؛ وسوء التخطيط؛ والارتجال؛ ويعتبرها من ملامح التخلف الأساسية وبالتالى تصبح ملامستها للواقع سطحية؛ عاجزة عن الغوص فيه والسيطرة عليه؛ ما يؤدى إلى خلق عقبات معرفية جدية تعطل خطط التنمية؛ وتعطى المبررات الذهنية لمقاومة التغيير؛ لقد قسم أحد العلماء دراسة للعقلية المتخلفة فى مرحلتين؛ الأولى: رصد الملامح والخصائص الأساسية للعقلية المتخلفة؛ والثانية: الأسباب والقوى المولدة لها؛ والتى تغذيها؛ وتعمل على استمرارها. فإذا أردنا رصد الخصائص الذهنية للتخلف؛ فعلينا أن نربط الظواهر التى يتم رصدها والكشف عن الروابط التى تربط بينها من خلال تصنيف منطقى وواقعى؛ ولسوف نجد أن هناك خصائص ذهنية منهجية من ناحية؛ وخصائص ذهنية انفعالية من جهة أخرى.

ويؤكد علماء الاجتماع على أن الخصائص الذهنية المنهجية للعقلية المتخلفة ترتبط باضطراب منهجية التفكير؛ وقصور التفكير الجدلى؛ أما الثانية فتختص بتداخل العوامل الذاتية بالعقلانية فى النظرة إلى الوجود. لقد شدد العلماء على النظر إلى العقلية المتخلفة كجزء من ظاهرة كلية؛ وهى ظاهرة التخلف؛ التى تتميز بالدينامية والتماسك؛ بعكس ما يعتقد الكثيرون بأن ظاهرة التخلف ثابتة وهشة.

لقد تناول العلماء بإسهاب الخصائص الذهنية المنهجية للعقلية المتخلفة وقسموها إلى قسمين: وهما:

١ ـ اضطراب منهجية التفكير.

٢ ـ قصور التفكير الجدلى.

وكلتا الحالتين تتميزان فى نظره بصعوبة السيطرة الذهنية على الواقع بكل تبدياته، وهذا العجز أو القصور لا يقتصر فى مجال واحد بل يشمل العجز إزاء ظواهر الطبيعة والحياة؛ والعلاقات؛ وما يبدو عليها من غموض؛ وتناقض؛ وتداخل؛بحيث تبدو له أقوى من طاقته على الاستيعاب؛ لذا يتوسل الإنسان المتخلف عادةً الوسائل السحرية والخرافية لسد هذا العجز أو النقص؛ ويسمي أحد العلماء هذه الحالة: «الخواء الذهنى»؛ ويضيف إليها أحيانًا كلمة «الزائف». والإنسان المتخلف فى هذه الحالة لايقبل على الدنيا بخطى ثابتة؛ بل يبدى التردد، ويتجنب وضع إمكاناته موضع الاختبار خوفًا من الفشل، ويميل أحيانًا إلى التعسف هربًا من عجزه فيطلق الأحكام المسبقة؛ والآراء المتسرعة؛ دون أن يجشم نفسه عباء الجهد الفكرى الضرورى لتحليل الواقع. وبالتالى؛ طغيان مشاعر السيطرة على الواقع من خلال الحذف أو ما يسمى «بالفهلوه».

ويعرف العلماء اضطراب منهجية التفكير التى ذكرت أعلاه بسوء التنظيم الذهنى فى التصدى للواقع؛ حيث تتقرب الذهنية المتخلفة من الواقع وتتعامل معه دون خطة مسبقة ذات مراحل منطقية واضحة سلفًا؛ فيقع صاحبها فى الفوضى والعشوائية والتخبط؛ كما تجده فى الغموض والحيرة؛ ما يجعله يلجأ إلى التمنيات بخروج سحرى من المأزق. إن المناقشات التى تتم من منهجية التفكير المضطربة غالبًا ما تخرج عن موضعها الأصلى؛ وهكذا تطرح قضايا جديدة هى بدورها تصبح منطلقًا للانحراف فى أمور جانبية؛ وهكذا تصبح المناقشات مضيعة للجهد والزمن دون الخروج بتصور واضح للمشكلة وحلولها، بينما تتقيد العقلية المنهجية عادة بخطوات فى بحثها لأية مسألة؛ يبدأ بتعريفها بدقة ووضوح؛ ثم تحديد الهدف؛ وبحث المشكلات التى تتضمنها؛ وتقسيمها إلى أساسية وثانوية مع تباين العلاقة بين الفئتين. ثم يأتى دور جمع المعلومات والمعطيات المتوافرة، وفرزها لتحديد الحل الأنسب تبعًا للهدف المقرر؛ ومناقشة كل حل على حدة؛ ولاتأخذ المسائل غالبًا هذا التسلسل المنهجى الواضح؛ لكن الضامن فى هذه الضرورة هو الاسترشاد بإطار منطقى يمكن العودة إليه؛ بعكس الذهنية المتخلفة التى تنحو التخبط؛ وتقفز من مرحلة أولية إلى مرحلة نهائية فتعجز عن متابعة السير؛ وهكذا تفتقد الحلول التى تطرحها هذه العقلية إلى المتانة المنطقية؛ وتغطى فشلها غالبًا باختلاق أعذار وتفسيرات غير منطقية. هذا التخبط وفقدان المنطقية لا يقتصران على الفئات غير المتعلمة

فقط؛ بل تنتشر مثل هذه الظواهر حتى بين فئات المتعلمين. إن التعليم فى حد ذاته فى المستويين الجامعى وحتى الدراسات العليا لا يشكل فى الدول المتخلفة ومنها العربية طبعًا ضمانه لإيجاد نخبة متعلمة تطرح حلولًا عملية لمشكلات مجتمعاتها، تلخيصًا لكل ما سبق؛ فإن أحد أهم أسباب قصور العقلية العربية هى معاناتها من قصور فى الفكر النقدى؛ وتحيز بشكل تلقائى نظرًا لتدخل العوامل العاطفية والانفعالية فى التفكير.

هذا العقل والذهن المتخلف هو دائمًا يكون قطعيًا فى تحيزه؛ فإما أن يكون مع أوضد أمر ما؛ وهذا يؤدى بدوره إلى القصور فى الجمع بين الأوجه الموجبة والسالبة؛ بين المميزات والعيوب؛ ومثل هذا الجمع فقط هو القادر على تلطيف الأحكام وزيادة قدرتها التميزية، وهذا يؤدى بدوره إلى انعدام المثابرة التى تنعكس على التفكير فى أمر ما فى حدود زمنية؛ سرعان ما يداخله التعب والتشتت؛ وينطلق صاحب مثل هذه العقلية بحماس كبير؛ ولكنه يفقد حماسه بالسرعة نفسها. وبسطحية ملحوظة وهذا مانراه فى دور أفعال القاده والمسئولين العرب فى تناولهم لقضايا أوطانهم. إن هذه العقلية لا تتحمل الجهد الطويل النفسى؛ لذا يصعب على الذهنية المتخلفة الدخول فى البحث المتخصص الذى يحتاج إلى المثابرة والجهد الدءوب.

وهذا يؤدى بدوره إلى تحكم ثقافة الخط والخطوة لإمكان الارتقاء بالجهد الذاتى البعيد المدى؛ لذا يسود طابع تدبير الحال والبحث عن المناسبات التى تحمل إمكانات النجاح السريع. إن السمة البارزة للعقلية المتخلفة هى انعدام الدقة والضبط فى التصدى للواقع وفي تقدير الأمور، كل شىء يبقى على مستوى التقدير الإجمالى والانطباع العام وعرضه للهاوية والتراخى والتساهل حتى الاستهتار؛ ويمكن ملاحظة ذلك فى مختلف أشكال الالتزام تجاه الآخرين. والدقة والضبط فى التعامل مع الآخرين يدل على مدى السيطرة على الوجود وتحديد المسئوليات والالتزامات كما أن العقلية المتخلفة عاجزة عن التخطيط؛ وتنظر إلى الواقع بشكل تجزيئى زمانيًا ومكانيًا؛ فمن الناحية الزمنية يتم التركيز على الحاضر مع انسداد الأفق المستقبلى؛ ولا تبقى المشكلة فى حدود عدم القدرة على التخطيط؛ بل تصل إلى انعدام الرغبة فى التنفيذ.

إن العيش فى الحاضر وانسداد آفاق المستقبل تعتبر إحدى الخصائص النفسية للوجود المتخلف؛ فالذى فقد السيطره على مصيره يستحيل عليه التخطيط للمستقبل؛ ويظل أسير الظروف المحيطة به؛ لأن التخطيط عبارة عن وسيلة للسيطرة على المصير؛ وتوجيهه وجهة ملائمة للإنسان. وهكذا يتقلب الإنسان المتخلف مابين التشاؤم والتفاؤل تبعًا للحظة الراهنة؛ يفرط فى تفاؤله أمام الظفر العابر؛ ويفرط فى تشاؤمه أمام الانتكاسة الآنية. أما مكانيًا:

فالإنسان المتخلف تجزيئى؛ يعجز عن النظر إلى أبعد من دائرته الضيقة لأنه عاجز عن الشمول وعن استشفاف آفاق بعيدة؛ ووضع خصائص المحيط المباشر فى أطر أكثر اتساعًا وشمولية. إن قصور التفكير الجدلى هو لب الذهنية المتخلفة؛ فهى قطعية؛ وحيدة الجانب؛ تتبع مبدأ السببية الميكانيكية؛ عاجزة عن العمل تبعًا لمبدأ التناقض. تنطلق الذهنية المتخلفة من مبدأ العزل والفصل؛ الشىء قائم بذاته؛ منفصل عن بقية الأشياء والظواهر؛ حكمها تقويمى نهائى؛ وتطلق صفة الثبات على الأشياء. بعكس المنهج الجدلى الذى يؤمن بالدينامية والصيرورة؛ وبالعلائق السببية بين الظواهر، كما تنطلق الذهنية المتخلفة من مبدأ السببية الميكانيكية بين الأشياء ذات الاتجاه الواحد بمعنى سبب معين يؤدى إلى نتيجة معينة؛ التأثير يأتى من السبب ويؤدى إلى نتيجة.

اللغة العربية وأثرها على العقل العربى

لقد أثارت أحدث الدراسات التى قام بها أحد الكتّاب المصريين التابعين لوزارة الثقافة المصرية. جدلًا شديدًا عندما اعتبر أن اللغة العربية الفصحى التى نرمز إليها أحيانًا بلغة سيبويه لم تكن فى يوم من الأيام لغة تفاهم وتعامل يومى بين أهلها إلا فى فترة وجيزة جدًا وفى رقعة صغيرة فى شبه الجزيرة العربية؛ وقد توقع الباحث للغة العربية بالانقراض كاللاتنية؛ وإحلال للهجات المحلية مكانها إذا لم تجدد نفسها في القريب العاجل بعد أن أصبحت قيدًا يكبل العقل العربى، ويغل طاقتنا الخلاقة؛ وتحولها إلى سجن يحبس العقل والأفكار ويلجمها بين جدارنه الحديدية؛ كما أنها تسهم فى حرماننا من الانطلاق إلى الآفاق الرحبة التى يفتحها العلم الحديث.

لقد استشهد هذا الباحث وآخرون بتجربة بلاد الغرب عندما تأثرت بالفرنسية أثناء فترة استعمارها؛ وأفادها ذلك كثيرًا بعد الاستقلال؛ وانعكس فى حالة لانتعاش الاقتصادية والفكرية والتكنولجية التى تعيشها هذه الدول؛ ولذلك اعتبر الباحثون أن الإنسان العربى يعيش حالة من «الشيزوفرينيا»؛ بسبب التناقض الداخلى الكبير بين الفصحى التى يقرؤها فى الكتب ويسمعها فى الخطب؛ وبين العامية التى يتعامل بها يوميًا فى حياته العادية لدراسة اللغة والتراث، وسيكون ضليعًا فى اللغة قويًا؛ لكنه سيفنى حياته فيها وينقطع عن العالم وينعزل بين كتب التراث أو أنه يتخصص فى أحد فروع العلم والمعرفة ويسهم فى تقدم المجتمع وازدهاره؛ وبهذا فستنقطع علاقته باللغة وقواعدها بصورة شبه تامة وهو الغالب؛ ويضيف هؤلاء الكتاب وغيرهم أننا يجب ألاننافق أنفسنا ونعترف بأننا جميعًا تصعب علينا اللغة العربية كلغة دارجة فى حياتنا اليومية؛ وذلك لجمودها وصعوبتها؛ فبداية من التلاميذ الذين يكرهون حصة اللغة العربية؛ ونهاية بباقى أفراد المجتمع لم يعد أحد يُقبل على دراسة اللغه العربية أو استخدامها، وقد طالب الكثير من المستشرقين من قبل بإعادة تنقية اللغة من القواعد التى رأوها صعبة على عقلية

الإنسان العربى العادى؛ وبذلك يجب التخلص منها؛ حيث اعتبروا أنه من أوضح الأدلة على معاندة قواعد اللغة العربية لسُنة التطور، وجود المثنى حتى القرن الحادى والعشرين؛ وهويزيد اللغة تعقيدًا وغير مقبول فى عصر التكنولوجيا؛ ومن المشكلات التى رآها الكثير من الدارسين للغة العربية، والتى علقوا عليها أيضًا وزعموا أنها تنفر دارسى العربية منها جمع المؤنث السالم؛ وتصريف الفعل الناتج عنه مثل نون النسوة؛ فلماذا نميز النساء؟ ولماذا تعطى العربية وحدها ـ دون لغات العالم ـ للمرأة خصوصية وميزة ! لقد شن بعض علماء اللغات الإنسانية هجومًا على ثراء اللغة العربية فى كلماتها ومترادفها؛ وأبوا إلا أن يقارنوها بالإنجليزية والفرنسية فقد هالهم أن تصل كلمات اللغة العربية إلى مليون و٩٠٠ ألف كلمة؛ فى حين أن الإنجليزية لا تزيد عن ٢٥٠ ألف كلمة؛ والفرنسية ٣٠٠ ألف كلمة؛ واعتبروا ذلك تعقيدًا أكيدًا فى اللغة؛ وليس كما يظن البعض دليلًا على ثراء اللغة؛ فهم لم يتفهموا جدوى تعدد معانى اللفظ الواحد؛ واعتبروا أن ذلك غير موجود فى اللغات الأخرى؛وهو من قبل الاستعراض اللغوى الفارغ فى اللغة العربية دون فائدة؛ فما معنى أن يكون هناك ٣٥ معنى لكلمة عين؟ وطالبوا بإلغاء ذلك؛ والتعبير المباشر والسريع والمتوازى مع إيقاع الحياة سواء اتفقنا أو اختلفنا مع هذه الآراء.

علينا أن نعترف أن عندنا مشكلات جمة فى اللغة العربية؛ وأساليب تدريسها وتبسيطها، كما أنها فعلًا من الناحية الواقعية أصبحت فى كثير من الأحيان لا تواكب سرعة إيقاع العلم والتطور الحياتى السريع لعالم أصبح يقفز قفزات سريعة نحو المستقبل؛ مع ثورة معلوماتية فائقة السرعة. إن حل ذلك يأتى من وضع برامج للتجديد والتبسيط اللغوى مع المحافظة على أصالتها؛ فقوة اللغة العربية تأتى من كونها لغة القرآن الكريم؛ كما أن اللغة تابعة للفكر؛ فالإنجليزية قوية اليوم لا لأنها لغة قوية؛ وإنما لأن فكر أصحابها متقدم؛ وكذلك كانت اللغة العربية فى عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية؛ ولذلك فأنا أعتقد أن العيب ليس بصفة كلية فى اللغة؛ ولكن فى تخلف أهلها، كما سبق أن ناقشنا ظاهرة تخلف العقلية العربية وأستشهد هنا بالأستاذ الدكتور محمد عابد الجابرى أحد رواد المشروع الفكرى العربى وصاحب موسوعة تطوير ونقد العقل العربى؛ فقد صرح أن اللغة العربية تُبنى على خاصيتين اثنتين وهما: لا تاريخيتها وطبيعتها الحسية؛ وإنها بناء على ذلك؛ لا تتوفر على الأدوات والآليات الضرورية للتفكير...؛ ومن ثم فهى ليست لغة ثقافة وفكر». إن هناك دراسات كثيرة فى السنوات الأخيرة قام بها العديد من الأكاديميين العرب والغربيين حول أزمة اللغة العربية ومشكلة التخلف المجتمعى العربى؛ وتقوم معظم هذه الدراسات على افتراض أن أزمة اللغة العربية هى جزء من مشكلة أهم؛ هى مشكلة التخلف؛ ومالم تبحث مظاهر التخلف فى بنية العقل العربى؛

فعلينا أيضًا أن نضف مظاهر التخلف فى العقل العربى تبعًا لآخر الدراسات التى نشرت فى مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها؛ وقد لخصت هذه المظاهر فى خمسة أصناف رئيسية وهى:

١ ـ الجزمية الفكرية؛ ويتفرع عنها الحسم فى تقييم الأمور؛ وعدم تقبل النقد.

٢ ـ عاطفية التفكير؛ ويتفرع عنها الآنية والارتجال؛ واتباع الهوى وغياب العدل.

٣ ـ التفكير المتمحور حول الذات أو ما يسمى بتضخم الأنا؛ يتفرع عنها الانتهازية والاستغلال؛ والديكتاتورية.

٤ ـ التواكل الفكرى؛ ويتفرع عنه: الاستسلام للتفكير التآمرى؛ وإيقاع اللوم على الآخرين؛ والاستسلام للواقع وعدم التضحية؛ وعدم المبالاة بأهمية الأمور؛ والنزعة التقليدية وغياب التفكير الإبداعى (الإمعية).

٥ ـ سطحية التفكير؛ يتفرع منها قصر النظر؛ وغياب العمق؛ وصفرية الانطلاقة؛ وإهمال الكيف والاهتمام بالكم؛ والتفكير التشخيصى؛ إن كل هذه المظاهر السابقة يعانى منها العقل الجماعى العربى؛ ولها انعكاساتها السلبية الخطيرة على واقع اللغة العربية كلغة مجتمع يعانى إجمالًا على مستوى الفرد والمجتمع والدولة. دعونا نتذكر المقولة الشهيرة «كلما اتسعت حضارة الأمة؛ وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها؛ وترقى تفكيرها؛ وتهذبت اتجاهاتها النفسية؛ فرضت لغتها»؛ وما يهمنا فى هذا الاقتباس قوله بالعلاقة الطردية بين نهضة اللغة؛ وتنمية التفكير والاتجهات النفسية لدى أهلها. وهو أمر يدعونا لتشخيص بنية العقل الجماعى العربى؛ واكتشاف مظاهر التخلف فيه كى يتسنى لنا البحث عن أسس علمية يمكن أن تكون منطلقًا لنهضة عربية حضارية.

مظاهر التخلف فى العقل العربى:

١ ـ الجزمية الفكرية

إن شخصية العربى دائمًا ما توقن أنها تعرف أكثر من غيرها؛ وأنه شخص غنى عن الاستشارة؛ فلا يحتاج إلى رأى آخر؛ ومتيقن من صحة رأيه، فلا يقبل المراجعة أو النقد؛ وأنه متعلق تعلقًا عاطفيًا برأيه لأنه من خصوصياته فهو جزء منه؛ ولذا فإن أي نقد يوجه إلى رأيه يفسر بأنه اعتداء على شخصيته؛ومن مظاهر الجزمية الفكرية أيضًا «نغمة الحسم»، وهى التعبير

عن وجهات النظر بأسلوب جازم لا مجال فيه للشك ولا احتمال فيه للخطأ. ومن مظاهرها عدم التسامح؛ ورفض الآخر نتيجة النظرة الهلالية التى ينحجب فيها المظهر الكامل للحقيقة؛ والنظر إلى الأمورعلى أنها بيضاء أو سوداء حيث لا مجال للون الرمادى؛ مع أن الحقيقة كثيرًا ما تقع فى حيز هذا اللون. ولعله من العجيب أن يتسم أسلافنا فى نهضتهم الحضارية الكبرى بتسامحهم وتقديرهم لآراء غيرهم قرونًا مضت؛ ونعجز فى القرن الواحد والعشرين عن ذلك. وللتدليل على تسامح أسلافنا مارواه «الشريف الجرجانى» فى كتابه الشهير «التعريفات» عن تفريق المشايخ بين المجتهدات والمعتقدات يقولون: «الحق ما عليه نحن والباطل ما عليه خصومنا» وفى المجتهدات يقولون: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب من خالفنا خطأ يحتمل الصواب». وشبيه بما ذكر من انعدام التسامح ورفض الآخر التصحيحات الباطلة التى لا تستند إلى حجة؛ وليس لها ما يدعمها إلا تجارب محدودة العدد لاتكفى للحكم على شىء من جنس أو نوع أو شعب أو نحو ذلك. فاليابانيون أذكياء والصينيون حكماء؛ و.. إلخ. ويبدو هذا المظهر واضحًا فى مجال اللغة العربية حيث نجد المدرس والباحث من ذوى الرأى الواحد الذين لا يرون الحق إلا معهم؛ ويقللون من آراء الآخرين؛ ولايتسامحون مع كل من يخالفهم؛وهو الأمر الذى أدى إلى ندرة العمل المؤسسى والجماعى الذى تعتمد عليه الدول المتقدمة عادّة؛ وتبنى عليه الآمال فى بناء الأساس العلمى لوضع خطط تطوير مناهج التعليم والتطوير الحضارى للأجيال الجديدة. يقول أحد المستشرقين؛ إن موافقتك رأى العربى بنسبة ٩٨٪ يعنى أنك عدوه؛ وإذا كان فى هذا شىء من المبالغة؛ فإنه من الواضح الذى يصعب إنكاره أن النقد فى مجتمعاتنا سبب قوى للاستعداء؛ فهناك مسلك شائع لربط الفكرة بمن يحملها بحيث يفسر الاعتراض عليها بأنه عداء سافر؛ أو هو فى أحسن الأحوال تحامل على صاحبها. ولاتشك أن سمة الرفض للنقد قد تركت أثرًا سلبيًا بليغًا على تطور العقلية العربية، لقد أدت هذه السمة إلى تفشى النفاق والمجاملة المقيتة وجعلهم بديلًا مهمًا للنقد البناء مما يسهم فى أزمة تطور العقلية. كما أدى النزوع إلى عدم تقبل النقد إلى غياب المراجعة الجادة للواقع اللغوى؛ والرفض الصارخ للنقد الذاتي، والنزوع ـ بدلًا من ذلك ـ إلى إلقاء اللوم في الأزمات على عوامل خارجية كالاستعمار والماسونية، وربما الجن والشياطين وغيرهم.

٢ ـ عاطفية التفكير:

ترتبط هذه الظاهرة بعدم النضج وغلبة الخصائص الطفولية في البشر، وهى سمة نسبية قلما يخلو منها إنسان، ولكنها تصبح خطرة إذا غلبت على شخصية على نحو مرضي، ويتفرع عن

عاطفية التفكير ما يسمى بالآنية والارتجال. ومن مظاهر الآنية والارتجال أن أعمالنا وأحكامنا غالبًا ما تكون ردودًا على أفعال وليس مبادرات، وهو ما يؤدي إلى انعدام الدقة في الحكم والاستعجال في العمل، والفوضى، وغياب التخطيط الواعي. والخلل هنا ليس في وجود ردود على أفعال بعينها، فهذا أمر شائع في كل الأمم، ولكن الخلل يبدو في غياب استراتيجيات عمل بعيد المدى وانعدام سياقات عامة مقاصدية بحيث تكون ردود الأفعال جزءًا مكملًا للقرارات والأحكام المؤقتة على نحو تكون فيه جميع هذه الجزيئات كلًا متناسقًا ومنسجمًا بعيدًا عن التناقض والتنافر.

و هكذا فإن الآنية والارتجال من العادات المستحكمة في الإنسان نتيجة تعوده على الاعتماد على الغير، ومن سمات صاحب هذه العادة أنه يفقد القدرة على المبادرة الذاتية وتصبح أفعاله مجرد استجابات تلقائية لا يوجهها تفكير ولا تحكمها إرادة حرة عازمة، والأشخاص الذين يعتادون على ردود الفعل التلقائي يعانون من العجز عن التفكير والاختيار، ويصبحون ضحايا الظروف والممارسات الخارجية ويعجزون عن ضبط انفعالاتهم، ويلومون الآخرون فيما يواجهون من مشكلات، ويعمون عن مسارات الأحداث ومصادر التأثير، ويهرعون إلى الغير طالبين النجدة والمشورة، ويجعلون من أنفسهم صيدًا للطامعين وغنيمة للمستغلين. وقد فُسرت هذه الظاهرة بأنها نتيجة للتنشئة الأسرية المتواكلة، والتربية التلقينية الخاطئة، ونظم الإدارة السلطوية، ونظم الحكم الظالمة.

يتفرع أيضًا عن عاطفية التفكير اتباع الهوى، ويعد اتباع الهوى؛ لما له من نتائج سلبية في غياب العدل والأمانة، من أهم أسباب تخلف الأمة، بل إن القرآن الكريم يصرح بأن اتباع الهوى سبب لفساد الكون، يقول تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ويشبه متبعي الأهواء بالأنعام من شدة جهلهم، يقول تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان٤٣ ـ ٤٤]، ويرى المفكر جودت سعيد أن الجاهل بتاريخ تطور المعرفة «هو الذي يمكن أن يتخذ إلهه هواه». وأن تاريخ المعرفة «هو الشفاء من أن يتخذ الإنسان إلهه هواه» ومن مظاهر اتباع الهوى التعصب للقبيلة وللبلد والأقارب وللأحباب (وهنا ينبغي أن نفرق بين الولاء في معناه الإيجابي، والتعصب بمعناه السلبي) والتعصب هو سمة من سمات المجتمع الجاهلي الذي شاع فيه هذا الحديث «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، ونظرًا إلى خطورة هذه الظاهرة، فقد حرمها الإسلام، ورسخ في المسلمين الأوائل

قيم العدل، والرجوع إلى الحق، «حتى أصبح ذوق المسلم العربي لا يسيغ ذلك المثل العربي السائر، ولما قال النبي ـ ﷺ ـ مرة: انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» لم يملك نفسه، فقال: «يا رسول الله إذا نصرته مظلومًا فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه».

وقد آل تفشي التعصب، واتباع الأهواء في كثير من المجتمعات العربية المعاصرة إلى انتشار أمراض اجتماعية خطيرة أشدها فتكًا المحسوبية، وتقريب أهل الثقة بدل أهل الخبرة، الأمر الذي حال دون وضع الشخص المناسب في المكان المناسب، ولا يخفى مايترتب على ذلك من آثار سلبية على أصعدة مختلفة أهمها الصعيد الاقتصادى؛ فالمؤسسات والشركات ودوائر الدولة والإدرات المختلفة تتحمل خسائر باهظة نتيجة اختيار المقربين على حساب اختيار الخبرات فى عمليات التوظيف وتوزيع المناصب. وفى كثير من الأحيان يغيب عن أصحاب الأهواء أن الخسائر المترتبة على أخطائهم المذكورة لا تقتصر على ما يتحمله المجتمع من آثار؛ بل إنهم يخسرون أيضًا على المستوى الفردى؛ يقول عمر بن الخطاب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فى رسالة إلى سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «ولا تخص بها أحدًا بهوى؛ فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك» ويقول الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين: «كل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده»؛ ويحتج بقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ وقوله ـ ﷺ ـ: «أبغض إله عُبد فى الأرض عند الله تعالى هو الهوى» «ويرى بعض العلماء أن من يتبع هواه فى سلوكه وتصرفاته ولايخضعها لحكم العقل ينبغى أن يحجر عليه فيما يقوم به من عمل. وقد ترسخ فى العقل العربى التعصب إلى الحد الذى نرى فيه الواحد منا يحاول أن يحابى خاصته بكل الطرق، حتى إنه لو كلف بتوزيع أوراق بيضاء متماثلة تمامًا على عدد من الناس لنظر فيها بدقة وقلبها على أوجهها عله يجد فى بعضها ميزات يخص بها بعض الناس على الآخرين. وقد أدرك العلَّامة ابن تيمية أهمية العدل وقيمته فى تحقيق النصر حين ذهب إلى القول بأن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة؛ يقول: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة؛ ويقال الدنيا تدوم مع العدل والكفر؛ ولا تدوم مع الظلم والإسلام». وهو مانراه متحققًا بالفعل على أرض الواقع؛ واشتهر عن ابن خلدون ربط التخلف الذى يسميه «فساد العمران «بالظلم. وإنه لمن الغريب أن يشيع الظلم بيننا، وقد أمرنا الله أن ننصف أعداءنا قبل أصدقائنا؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

أثر الشعر العربى فى العقلية العربية: (عاطفية التفكير)

يؤدى تدريس الشعر وظيفة جمالية مهمة؛ هدفها تنمية أذواق الناس؛ والارتقاء بفلسفتهم الجمالية؛ غير أنه من المهم أن ننتبه إلى الأثر السلبى الذي قد يؤثر في تفكير الأشخاص العاديين والطلاب في المدارس عندما نبالغ في إلصاق سمة «الشعرية» باستخدامنا للغة؛ بحيث يصبح التنميق؛ والزخرفة والمبالغة؛ والعاطفة؛ ونحوها سمات متأصلة فى اللغة وملازمة لاستعمالاتها. واذا كانت البلاغة قد سميت بهذا الاسم؛ لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه؛ فذلك يعنى أن الدقة؛ والوضوح فى التعبير؛ ومراعاة مقتضى الحال؛ هى السمات المهمة التى يتحقق بها نجاح التخاطب؛ الذى يقاس بإدراك مراد المتكلم. وأما المبالغات؛ والعواطف الجياشة؛ والخيال العذب؛ والمحسنات البديعية؛ فينبغى أن تقصر على مجالات الأدب؛ أولا تمتد لتشمل الاستخدامات الوظيفية والعلمية. ولعل من الآثار السيئة التى تركها التفكير الشاعرى ميل الناس إلى استخدام عبارات مثل «القائد الأعلى» و«أبطالنا الأشاوس»؛ و«الشعب البطل» و«عملاق الثورة»؛ و«المارد الجبار»؛ ونحوها من الألفاظ التى تتسم بالإنشائية؛ وعدم الدقة. إن التفكير الشاعرى «يقتل التفكير العلمى»؛ ويظهر ذلك فى غياب النزعة العلمية فى المجتمعات العربية منذ أقدم السنين؛ فلقد ظل الإنسان العربى هائمًا مخمورًا بالصورة الشعرية وهو يزرع الأرض العربية جيئة وذهابًا آلاف السنين بينما ينسج الشعر على عينيه وعقله غشاوة منعته من ملاحظة الثروات الهائلة فى باطن الأرض وظاهرها.

وربما كان من أسوأ ما تركه التفكير الشاعرى فى سلوك العرب تفشى عبارات المديح والإطراء والفخر والعصبية التى ورثناها عن الشعراء عبر التاريخ؛ ورسخها فينا تآلف التفكير الشاعرى مع نزعتنا إلى التعلق بالأشخاص؛ وتقديسهم؛ كما سأوضح لاحقًا. وينبغى أن أوضح أن الشعراء الذين قال عنهم تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤] وهو الشعر الذى وصفه القرطبى فى تفسيره هذه الآية بقوله: «وأما الشعر المذموم الذى لا يحل سماعه وصاحبه ملوم؛ فهو المتكلم بالباطل حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة؛ وأشحهم على حاتم؛ وأن يبهتوا البرىء؛ ويفسقوا التقى؛ وأن يفرطوا فى القول بما لم يفعله المرء رغبة فى تسلية النفس وتحسين القول».

٣ ـ التفكير المتحور حول الذات:

أ ـ الانتهازية والاستغلال:

يرى كثير من الناس فى المجتمعات العربية، أن الحياة فرص ينبغى استغلالها ويسود

بينهم الاعتقاد بأن العلاقات مع الآخرين يحكمها صراع يوجب على كل طرف بضرورة حسمه لصالحه. وقد ترتب على ذلك أن من يحصل على منصب سياسى أو اقتصادى أو موقع اجتماعى أو إعلامى أو تربوى فلابد له من أن يستغله لصالحه إلى أقصى حد ممكن. وعادّة ما يرفع الانتهازيون شعار «اربح ويخسر الآخرون»؛ الذى يعكس اتجاهًا نفسيًا عقليًا ينطلق من التنافس والتحاسد؛ وينظر للحياة كميدان سباق لا يربح فيه أحد إلاعلى حساب الآخر. وإذا تسلم القيادة من يفكر بهذه العادة فسيكون متسلطًا دكتاتورًا لا يتعاون مع أحد ولا يأمنه أحد. وكما ضربت الأنانية والانتهازية أهل السياسة وأهل الحكم فى مجتمعنا العربى؛ فقد ضربت أيضًا مراكز البحث العلمى والجامعات، والتى من المفترض أن تقود أى مجتمع إلى التقدم والرقى. إن الدوافع البحثية عند بعض الباحثين فى الأوساط الأكاديمية العربية تكون بغاية الحصول على الترقيات وتحسين السير الذاتية والرغبة فى الحصول على المال والمنافع المادية؛ والجوائز النقدية؛ وليس بتطوير المادة العلمية ومناهجها وطرائق تدريسها إن أكثرما تقوم به أساتذة الجامعات من بحوث ينصرف لأغراض نفعية قصيرة المدى تتصل بترقياتهم الأكاديمية؛ ولايستفيد منها المجتمع فى دفع عجلة التنمية أو فى المشاركة العالمية الجادة على أساس ندى؛ كما يمكننا أن نرى آثار الأنانية فى الغاية من تنظيم المؤتمرات؛ يفرض الدعاية للمؤسسات التجارية؛ أوإثبات الذات وإظهار الإنجاز والإنتاج. إن العلم فى المجتمعات العربية لم يصبح رسالة مقدسة كما كان؛ بل اقتصر الأمر غالبًا على اعتبار تلك الأعمال وسيلة من وسائل العيش. إن هذا الواقع المحزن فى حياة الأكاديميين العملية التى يعيشونها فى ضوء ظروف جامعية تسود فيها «الأحكام العرفية والجهالة والتبلد والتخلف التام «إلى أن أصبحت حياتهم خالية من كل معنى؛ وتحولت قصارى آمالهم إلى تكثيف الجهود؛ من أجل مطلق العيش وحماية الرغبة فى الوجود وفى البقاء، أو فى نشدان السلطة بأشكالها المختلفة.

ب ـ الاستبداد:

تعد هذه السمة نتيجة تراكمية لكل ما ذكر؛ كما أنها مظهر مجسد له؛ إذ ترتكز على نعمة الحسم في تقييم الأمور، وعدم تقبل النقد، والآنية والارتجال، واتباع الهوى والعواطف، والانتهازية والاستغلال، ولا يكاد يوجد مستبد لا يتسم سلوكه بهذه الصفات. إن الاستبداد وضعه بعض المفكرين على رأس قائمة ما سموه بالقيم المضادة للحياة والتقدم.

وتتلخص مشكلة الاستبداد في أن المستبد يرى تناقضًا بين مصالحه الشخصية المحكومة بأنانية مفرطة، والمصالح العامة التي تشبع فهمه؛ ولذا يحرص على أن تكون كل أمور المجتمع

متمحورة حول شخصيته؛ فهو الذى تدور لأجله عجلة الحياة؛ فلأجله يتعب الفلاح؛ ويشغل التاجر؛ ويجتهد الصانع؛ ويؤلف المؤلف؛ وينظم الشاعر؛ ولأجله تلد الأمهات وفى سبيله يموت الرجال؛ وتقاتل الجيوش. ويقصر كثير من الناس مفهوم الاستبداد على الحاكم مع أن بعض الحكّام ـ وربما أكثرهم ـ هم أقل استبدادًا من أغلب الناس. ويبدو لى أنه ليس ثمة صفة إنسانية أضرت بالإنسان عمومًا وبالعرب خصوصًا كهذه الصيغة؛ إذ ترتب عليها من الخسائر الاجتماعية والسياسية ما لا يمكن تعويضه؛ وذلك بسبب ماينشأ عنها من اتخاذ قرارات إستراتيجية وإجرائية غير سلمية تحدث ضررًا كبيرًا بالشركة أو المؤسسة أو الإدارة أو الدولة التى تغيب قيم الشورى والديمقراطية والشعبية. وقد عزا الكثير من المحللين ضياع مصالح شعوب العالم الثالث فى التنمية والتعليم والصحة والسكن والعمل إلى الاستبداد؛ كما عزا ابن خلدون سقوط البرامكة إلى هذه السمة المدمرة.

٤ ـ التواكل الفكرى

التواكل الفكرى هو نوع من الكسل العقلى، مقترنًا بنهج تسويفى يرمى إلى تعطيل النفس من التعامل مع مشكلة ما. ومن مظاهر التواكل الفكرى ما أنقله هنا عن د. محمد يونس على، فى دراسته الشيقة عن أزمة اللغة ومشكلة التخلف فى بنية العقل العربى المعاصر:

الاستسلام للتفكير التآمرى

ما أسهل على العربى أن يحل جميع مشكلات العالم؛ وهو يحتسى فنجانًا من قهوة؛ وربما قبل أن يرتد إليه طرفه؛ فبلحظة من الإلهام الذى لايكاد يخطئ يستطيع كثير من الناس أن يتجاوز النظر إلى ظواهر الأمور ويتعمق فى نيات الناس؛ وفى غياهب الغيبيات ليدرك بثقة كاملة أن المسألة قيد الدراسة أو النقاش لا تعدو أن تكون أو ناشئة عن محض مؤامرة يقوم بها أعداء الأمة أو الجن أو قوة أخرى خفية لا نعرفها (كالماسونية ونحوها)؛ ولا يمكن أن تكون ناشئة عن أخطائنا أو تقصرنا أو سوء سلوكنا ولا يقتصر هذا التفكير التآمري على القضايا السياسية والاجتماعية العامة بل تشمل أيضًا مشكلات العمل والأسرة والعلاقة بالآخرين إجمالًا.إن المصاب بهذا النوع من التفكير ليشبه طبيبًا يعزو جميع الأمراض التى يشكو منها مرضاه إلى قوى شريرة تتحكم فى أجسادهم؛ وهو بذلك يريح نفسه من عناء استخدام السماعة؛ وقياس الحرارة والضغط والسكر؛ والتفكير فى الاحتمالات الطبية الممكنة للمرض، وينبغى ألايفهم أننا ننفى وقوع التآمر على المستوى الاجتماعى أو السياسى والدولى؛ فالتاريخ والتجارة تشهد

بوقوع ذلك؛ ولكن الخطر كل الخطر أن نحاول استخدام التفكير التآمرى فى حل أية مشكلة أو تشخيصها؛ فهو وسيلة تهرب تسويفية؛ وليس أداة حل أى مشكلة. إن الدين الإسلامى يدعونا إلى ربط المسببات بأسبابها؛ وإلى التأمل فى الظواهر الكونية والإنسانية واكتشاف قوانينها. هو بذلك ينهانا كما كان سائدًا من اعتقادات خرافية تربط الوقائع والأحداث بأمور خفية؛ كما هو مشهور فى قصة خسوف القمر عند موت إبراهيم ابن الرسول(ﷺ) حيث نهينا عن الرابط بين الحدثين، ونظرًا إلى أن التفكير التآمرى لا يستند عادةً إلى منطق أوبرهان أو ربط بين أمور يمكن التدليل عليها؛ يشبه إلى حد كبير تلك الاعتقادات الخرافية التى كان يقول بها البدائيون من الأمم. إن التفكير التآمرى دليل على الروح الانهزامية؛ وعدم الثقة فى النفس؛ وضعف الإرادة؛ وفتور العزم؛ ومن مخاطر هذه الانهزامية النفسية أنها تقضى على معنويات الأمة؛ وتهيئتها للاستسلام للمستعمر؛ يقول شكيب أرسلان: «وهكذا أصبح المسلمون فى العصور الأخيرة يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والأوروبى إلاسينتهى بمصرع المسلم ولوطال كفاحه». وقد شجع هذا الموقف الانهزامى الاستسلامى العقل الاستعمارى على المضى فى التخطيط لتحقيق مصالحه فى العالمين العربى والإسلامى خلال القرنين الماضيين؛ وليس لنا من سبيل إلى التخلص منه إلا باستعادة ثقتنا فى أنفسنا من خلال التفكير العلمى؛ والوعى بالذات متمسكين فى ذلك بثوابت العقل؛ وقد نقل عن بعض المصلحين قوله: «أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم».

الاستسلام للواقع وعدم التضحية

فالخطأ والتقصير دائمًا منسوبان إلى الآخرين: حتى انعكس ذلك فى طريقتنا فى التعبير اللغوى؛ فبينما يقول الطالب الإنجليزى عند تأخره عن حضور الدرس مثلًا: «I missed the bus» ناسبًا الخطأ إليه؛ يقول الطالب العربى: «لقد فاتنى الباص» ناسبًا الخلل إلى الباص. ولعل من أشهر التبريرات التى نتعلل بها الاحتجاج بالقضاء والقدر؛ وهو أمر شائع إلى الحد الذى يوفر علينا مؤونة الإشارة إليها؛ مع أن القرآن الكريم يعلمنا أن نعزو الأخطاء إلى أنفسنا؛ ونعترف بذنوبنا؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ ويقول أيضًا: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] لعل من أهم أسباب تقدم الأمم قوة الإرادة؛ وشدة العزم؛ والاستعداد للتضحية، وبذل الجهد فى سبيل مايؤمنون به؛ وما يرون أنه يحقق لهم أهدافهم؛ وإذا كان الأمر كذلك فإن مداهنة الناس؛ والاستسلام للواقع؛ والتقاعس؛ وعدم

التضحية من أجل تغييره من أهم أسباب تخلفهم. ولعله من الواضح أن السلوك الاجتماعى عند العرب ينزع فى مجمله إلى مسايرة الواقع وترسيخه وتكريسه؛ وتكاد تختفى المحاولات الجادة لتغييره؛ اتكالًا على مبدأ أن التغيير مكلف؛ وقد يكلف الإنسان فقدان عمله؛ أوربما سجنه؛ أوحتى موته؛ ولذا فالأفضل أن نختار السلامة بتبنى موقف محايد؛ أوربما بمناصرة أهل القوة وتحلقهم ومداراتهم لحماية النفس؛ أو للحصول على مستوى معيشى أفضل. ومن العجيب أن نرى فى الغرب كيف تدفع امرأة من جمعية الرفق بالحيوانات حياتها ثمنًا لدعوتها إلى توفير نقل مريح للأبقار والأغنام بدلًا من نقلها بشاحنات غير مريحة؛ وأن نتقاعس نحن عن حماية قيمنا وحضارتنا وأمتنا لمجرد خوف متوهم أو طمع مستحكم. لقد حاولت تلك المرأة البريطانية منع إحدى الشاحنات من التحرك بوضع نفسها تحت عجلات شاحنة إلى أن دهست وضربت بذلك مثلًا على التضحية من أجل الآخرين ومن المثالب الخطيرة التى هى سمة الاستسلام الفكرى ما نراه من انقياد للغرب؛ وتهاون فى حماية العربية من منافساتها الإنجليزية والفرنسية والعامية؛ وتقهقر ناشئ عن الإستسلام للغالب؛ الذى فرض علينا لغته وفقا لقانون فساد لغة المغلوب وهيمنة لغة الغالب؛ علاوة على النزوع إلى الصمت أمام المسئول حين يكون المرء مقتنعًا بخطأ المسار الذى تسير عليه المؤسسة؛ أوفى غيرها من الأمور المتصلة بذلك. ويذكر بعض الباحثين أن الخضوع السلبى للمسئول مثله ـ فى ذلك مثل المقاومة العدوانية العلنية عادةً مايكون استجابة شبه طفولية لسلوك سلطوى تقليدى.

عدم المبالاة

لهذه الصفة مظاهر مختلفة منها عدم إتقان العمل والاكتفاء من القلادة بما أحاط بالعنق كما يقولون وعدم العناية بالتفاصيل؛ وغياب الدافع الذاتى للقيام بالعمل، وكثيرًا ماتكون عدم المبالاة مبعثًا للضغائن والأحقاد بين الزملاء مثلما قيل فى المثل «علة المعاداة قلة المبالاة»؛ لأن الكسل وعدم إتقان العمل يدفع الكسول إلى الغيرة من النشط من الناس المتقن لعمله؛ والكيد له؛ فيترتب على ذلك مايترتب من تقاعس وتخلف. كما أن قلة المبالاة توقع صاحبها فى الخطأ فى تقديم المعلومة؛ وعدم الدقة فى تحرى الصواب، غير أن أخطر ما تظهر فيه اللامبالاة عدم تقويم الأمور وفقًا لأهميتها للفرد والمجتمع على المدى البعيد؛ بل بقدرماتدره من مكاسب شخصية سريعة ومؤقتة، فالطالب العربى يركز كل اهتمامه على الامتحانات وتغيب عنه أهمية التعلم من أجل الحياة؛ والموظف العربى لا يحرص على شىء سوى إرضاء مسئوله؛ أو حصوله على الترقية؛ وهلم جرا. وهكذا تبقى قضية التخلف بعيدة عن مرمى اهتماماتنا. ومن شواهد عدم

مبالاة الباحثين والمثقفين العرب بقضايا الأمة ما ذكره أحد الكتاب العرب عندما أشار إلى أن المعهد العالمى للفكر الإسلامى أرسل خمسة آلاف رسالة إلى علماء الإسلاميات والاجتماعيات مع نسخة مرافقة لكل رسالة من كتاب إسلامية المعرفة للتعليق عليه ودراسة الفكرة ثم الرد عليهم بتقديم الخطط والآراء والنظريات؛ فلم يجب منهم بكتابة بحث فى الموضوع إلا ستة وخمسون؛ لم يوافق منها المواصفات المطلوبة غير ثلاثة أبحاث. والملاحظ أن هذا الموقف السلبى من أمثال هذه الدعوة ليس غريبًا على مجتمعات مايسمى ـ تفاؤلًا ـ بالدول النامية؛ إن العزوف عن المشاركة فى الأنشطة العلمية والاجتماعية ونحوها سمة بارزة من السمات المعنوية للمجتمعات المتخلفة. وفى هذا الصدد؛ قال ابن الأثير: في كتابه الشهير: «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر»؛ ـ ولاشك أن قلة المبالاة بالأمر؛ واستشعار القدرة عليه توقع صاحبه فى ما لا يشعر أنه وقع فيه فيجهل بما يكون عالمًا به».

النزعة التقليدية وغياب التفكير الإبداعى

لقد شاعت فى أوساط المجتمعات العربية فكرة المحافظة على القديم لمجرد قدمه، والعزوف عن الجديد لمجرد جدته؛ وتوسعنا كثيرًا فى تعميم الحكم على كل بدعة بأنها ضلالة بحيث شملت كل مايتعلق بشئون الحياة مع أنها وردت حصرًا فى العبادات التوقيفية التى يقصد بها الامتثال لأمر الله عز وجل، وهكذا طغت علينا صفة الآبائية؛ فعشقنا المألوف وقدسنا ما ألفينا عليه آباءنا فى عصور التخلف؛ وساد الحكم على الأشياء بمعيار الأصالة أو الجدة دون نظر إلى الأشياء فى حد ذاتها؛ وغاب عنا أن الزمن ليس له صلة بالجودة أو الرداءة؛ ولا الجودة مرتبطة بحداثة أو بقدم؛ فالجودة لاترتبط بالتاريخ (القديم أو الحديث)؛ ولا بالجغرافيا (الشرق أو الغرب) لقد عزا بعض المهتمين وجود نزعة الاتجاه السلبى نحو الابتكار فى مجتمع ما «إلى استمرارية المحافظة على أنماط الحياة اليومية واستقرارها لأجيال طويلة «وإلى كون محاولات الابتكار» غير مجزية «علاوة على كونه» نوعًا من المغامرة المشكوكة النتائج «إن النقطة التى تستحق الاهتمام هنا هى أن الفكرة العلمية ينبغى أن تقوم حسب أهميتها؛ وبالنظر فى مدى صحتها بغض النظر عن مصادرها التاريخية والجغرافية؛ فالصحة لا ترتبط بزمان معين أومكان معين، وبناء على ذلك فإن السؤال الصحيح الذى ينبغى أن يسأل دائمًا هو ماذا قيل؟ وليس من قال؟ أو أين قيل؟ أو متى قيل؟ كما هو شائع عند كثير من مصدرها غربيًا أوحديثًا ويقبلونها إذا كان مصدرها تراثيًا دون نظر فى مدى صحتها ودون فحص لأدلتها.

التفكير الهامشى

أعنى هنا بالتفكير الهامشى؛ ما قاله الكاتب «عبد الكريم بكار» فى كتابه: مدخل إلى التنمية المتكاملة؛ إن التفكير الهامشى هو إشغال فكر الإنسان بقضايا خارجة عن دائرة نفوذه؛ وتأثيره؛ كأن يمضى الكثير من الوقت فى حل مشكلات العالم دون أن ينهج فى ذلك نهجًا علميًا؛ ودون أن يكون له من المؤهلات والقدرات التى تمكنه من أن يخوض فى ذلك؛ أو أن يضيع الوقت فى النقاشات البيزنطية العقيمة أو الصراعات التاريخية السالفة. والميل إلى التفكير الهامشى إنما هو نوع من التعويض عن الكسل؛ والتقاعس عن الواجبات المناطة به؛ ومحاولة إقناع النفس بالانشغال بقضايا الأمة؛ وتاريخها؛ ونحو ذلك من الأمور؛ وعلى الرغم من إدراكنا أن الله لايحاسبنا على ما لا طاقة لنا به؛ فإن الكثير من الوقت يضيع فى إعمال عقولنا فى أمور تخرج عن ممتلكاتنا؛ وواجباتنا؛ وعاداتنا وأحوالنا؛ ونحو ذلك مما يدخل فى إطار نفوذنا.

سطحية التفكير

يطلق قصر النظر على كل تقويم لعمل ما يقتصر فيه على مردوده الآنى؛ أوما يترتب عليه فى المستقبل الدانى؛ وهو أمر يؤدى بصاحبه إلى التخبط والجور على من هو دونه حين يجبره على إنجاز ما قصر هو فيه؛ ويبدو هذا واضحًا فى المؤسسات التى يغيب عنها التخطيط المستقبلى؛ وتضطر إدارتها إلى إرغام موظفيها على القيام بأعمال لا يمنحون فيها الوقت الكافى لإنجازها فيترتب على ذلك رداءة الأداء وتفاهة النتائج. وما قيل عن المستوى الإدارى ينطبق على المستوى الفردى والأسرى والاجتماعى. إن غياب العمق الفكرى فى العقلية العربية تعنى غياب الطابع التجريدى فى البحوث والأعمال؛ وعدم العناية بالتفاصيل؛ والاقتصار على ما هو مألوف أو مايسهل الوصول إليه والنظرة الشمولية للموضوع؛ والعجز عن التنظير والجهل بطبيعة المعرفة البشرية؛ وأصولها. وفى النهاية فإن الناظر فى كل ما سبق استعراضه فى أسباب تخلف العقلية العربية ليلحظ إن كل السمات المذكورة هى أقرب لأن تكون صفات طفولية وعدم نضوج فكرى يتمحور حول الأنا وتحكمها الاتكالية والاستسلام والعاطفة؛ وربما دل هذا على أن الشعوب المتسمة بها تنضج بعد؛ إن الحل كما أتصور بفكرى ورأيى المتواضع يكمن فى الدفع بالأجيال الجديدة وعامة الشعوب العربية والإسلامية إلى أن تبلغ سن الرشد وتنضج فكريًا؛ ويكون مشروع التحديث الفكرى والحضارى هوأساس النضوج لهذه الأجيال الجديدة؛ ويكون أيضًا بتخليصها من السمات الطفولية المذكورة سابقًا. ولا ينبغى أن يفهم

من هذا أن ما هو سائد فى مجتمعاتنا العربية من قيم وآداب وتعاليم دينية مندرجة فيما أشرنا إليه. بل كل ما أعنيه هو طرائق التفكير وأساليب التصرف السائدة فى المجتمع التى تصدر عن أهواء النفوس؛ وتحكمها العقول المتسمة بالصفات المذكورة؛ وليس السلوك المحكوم بالدين أو الأخلاق المحكومة بالأعراف الأصيلة بداخل فيما ذكرنا بأى وجه من الوجوه، واهتم هذا الفصل باستعراض تاريخى لبعض الكتاب والمحللين على مدى التاريخ البشرى فى وصف العقلية العربية، وذلك نقلًا عن الكاتب عادل الصاوى فى مقالته:وصف العقلية العربية: لكل أمة من أمم الأرض خصائص وصفات تشكل جماع عقليتها؛ وتتجلى فى تفكيرها ومنطقها ونفسيتها وعاداتها وآدابها وفنونها؛ ولكم تبارى الكتَّاب والمحللون على مدى التاريخ البشرى فى وصف عقلية هذه الأمة أو تلك بشتى الأوصاف؛ وكان للعقلية العربية النصيب الأوفى من جهود أولئك الكتاب والمحللين والمولعين بتحليل الشخصيات والنفسيات؛ وهذه مجموعة من مقولات مختلفة تشخص العقلية العربية القديمة:

١ ـ نسبت بعض كتب التاريخ القديم لملك الفرس كسرى أنو شروان كلامًا توجه به إلى ملك الحيرة النعمان بن المنذر؛ افتخر فيه بعقلية قومه؛ وفى نفس الوقت ذم العقلية العربية؛ إذ نعتها بعدد من الصفات السلبية من بينها. ضعف الهمة والغدر واللعب بالكلام والكسل والجبن والغرور؛ فقال: «همتهم ضعيفة؛ بدليل سكنهم فى بواد قفراء؛ ورضاؤهم بالعيش البسيط والقوت الشحيح؛ يقتلون أولادهم من الفاقة؛ ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة. أفضل طعامهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها؛ وإن قرى أحدهم ضيفًا عدها مكرمة؛ وإن أطعم أكلة عدها غنيمة تنطق بذلك أشعارهم؛ وتفتخر بذلك رجالهم؛ ثم إنهم مع قلتهم وفاقتهم وبؤس حالهم؛ يفتخرون بأنفسهم؛ ويتطاولون على غيرهم؛ وينزلون أنفسهم فوق مراتب الناس حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكًا أجمعين؛ وأبوا الانقياد لرجل واحد منهم يوحدهم ويجمعهم. إذا عاهد والغير وافين؛ سلاحهم كلامهم؛ به يتفننون وبكلامهم يتلاعبون؛ ليس لهم ميل إلى صنعة أوعمل ولافن؛ لاصبرلهم؛ إذا حاربوا ووجدوا قوة أمامهم حاولوا جهدهم التغلب عليها؛ أما إذا وجدوها قوة منظمة هربوا مشتتين متبعثرين شراذم؛ يخضعون لحكم الغريب ويها بونه، ويأخذون برأيه فيهم؛ ما دام قويًا؛ ويقبلون لمن ينصبه عليهم؛ ولا يقبلون بحكم واحد منهم؛ إذا أراد أن يفرض سلطانه عليهم».

٢ ـ توقف الجاحظ عند عفوية وبساطة العربى فى تفكيره ومنطقه وكلامه فقال: «وكل شىء عند العرب فإنما هو بديهة وارتجال؛ وكأنه إلهام؛ وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إطالة

فكر ولا استعانة؛ فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب؛ وإلى العمود؛ الذى يقصد؛ فتأتيه المعانى إرسالًا؛ وتنثال الألفاظ انثيالًا. ليس هو كمن حفظ علم غيره؛ واحتذى على كلام من كان قبله؛ لم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم؛ والتحم بصدورهم؛ واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب».

٣ ـ أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى صعوبة قيادة العرب فقال؛: «وهم متنافسون فى الرياسة؛ وقل أن يسلم واحد منهم الأمر لغيره؛ ولوكان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا فى الأقل؛ فيقدر الحكام منهم والأمراء؛ وهم أصعب الأمم انقيادًا وبعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة؛ فقلما تجتمع أهواؤهم».

٤ ـ ونقل أحمد أمين فى كتابه (فجر الإسلام) عن المستشرق الأب «لامانسى» قوله عن مفهوم العربى للحرية فقال: «إن العربى نموذج الديمقراطية؛ ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها إلى حد بعيد؛و إن ثورته على كل سلطة تحاول أن تحد من حريته ولوكانت فى مصلحته؛ وهى السر الذى يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التى شغلت أكبر جزء من تاريخ العرب؛ وجهل هذا السر هو الذى قاد الأوروبيين فى أيامنا هذه إلى كثير من الأخطاء وحملهم من الضحايا التى كان يمكنهم الاستغناء عنها؛ وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم للسلطة التى تحول بينهم وبين السير فى سبيل الحضارة الغربية. ويبلغ حب العربى لحريته مبلغًا كبيرًا؛ حتى إذا حاولت أن تحدها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش فى قفص؛ وثار ثورة جنونية لتحطيم أغلالة والعودة إلى حريته؛ ولكن العربى من ناحية أخرى مخلص مطيع لتقاليد قبيلته؛ كريم يؤدى واجب الضيافة والمحالفة فى الحروب؛ كما يؤدى واجبات الصداقة مخلصًا فى أدائها حسب ما رسمه العرف».

٥ ـ أشار أحمد أمين إلى ذكاء العربى فقال: «العربى عصبى المزاج؛ سريع الغضب؛ يهيج للشىء التافه ثم لا يقف فى هياجه عند حد؛ المزاج العصبى يستتبع عادة ذكاء؛ وفى الحق أن العربى ذكى؛ يظهر ذكاؤه فى لفته؛ فكثيرًا ما يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة؛ كما يظهر فى حضور بديهته؛ فما هو إلا أن يفاجأ بالأمر فيفاجئك بحسن الجواب؛ ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر؛ فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة؛ فيبهرك تفننه فى القول أكثرمما يبهرك ابتكاره للمعنى؛ وإن شئت فقل إن لسانه أمهر من عقله؛ وحياة خيرًا من حياتة يسعى وراءها؛ لذلك لم يعرف (المثل الأعلى)؛ لأنه وليد الخيال؛ ولم يضع له فى لفته كلمة واحدة دالة عليه؛ ولم يشر إليه فيما نعرف من قوله؛ وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم

جديد يستقى منه معنى جديدًا؛ ولكنه فى دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب. أما ناحيتهم الخلقية فميل إلى الحرية قل أن يحدها حد؛ ولكن الذى فهموه من الحرية هى الحرية الشخصية لا الاجتماعية؛ فهم لايدينون بالطاعة لرئيس ولاحاكم؛ تاريخهم فى الجاهلية وحتى فى الإسلام سلسلة حروب داخلية؛ وعهد عمربن الخطاب كان عصرهم الذهبى؛ لأنه شغلهم عن حروبهم الداخلية لحروب خارجية؛ ولأنه منح فهمًا عميقًا ممتازًا لنفسية العرب.

٦ ـ فى بحث بعنوان «الخلاف السياسى فى فجر الإسلام»؛ نعت الباحث الدكتور عبد اللطيف البرغوثى؛ العربى الجاهلى بالأنانية المفرطة؛ وتوقف عند ظاهرة الفردية؛ فقال «العربى الجاهلى فردى مفرط فى فرديته؛ وفرديته هذه فردية مصلحية ولا تقل قسوة وعنفًا عن قسوة بيئته الطبيعية وعنفها؛ لكن هل كانت هذه الفردية المصلحية المفرطة تتناقض فى جوهرها مع ما اتصف به وتغنى به ومارسه من كرم مفرط؟ لقد رأى الباحث أنه لا يستطيع أن يرى مثل ذلك التناقض؛ بل يذهب إلى أبعد من ذلك؛ فرد صفة الكرم إلى نفس منبع تلك الفردية ألاوهى المحافظة على الحياة فى مضمار تنازع البقاء؛ فقد وجد العربى وبالتجربة المؤلمة المريرة أن بيئته فرضت عليه حياة الرحيل والتنقل طلبًا للماء والعشب، ومن أجل الصيد والغزو؛ ووجد أنه فى تنقله فى أرجاء صحرائه القاحلة كان عرضةً للموت جوعًا أو عطشًا أو ضياعًا ألف مرة ومرة وفى كل سفرة يقوم بها؛ ولما كان يبحث في أسفاره عن أسباب الحياة وليس أسباب الموت فإنه تيقن أن نجاته من الموت عبر صحائره التي أسماها مفازة من باب التفاؤل باجتيازها حيا، لا يمكن أن تكون إلا على يد إنسان آخر، يقدم له الزاد إن جاع والماء إن ظمئ، وفي سبيل أن يجد الراحة والماء والزاد لدي المنقذ المنتظر أوجب علي نفسه أن يسلك سلوك المنقذ في أيام استقراره حتي يلقي مثل تلك المعاملة أيام سفره وترحاله، ومع مرور الأيام تطورت نواة كرمه هذه حتى أصبحت قيمة اجتماعية متحكمة في حياته وعرفًا راسخًا يلقي من يخرج عليه مايلقاه الخارج عن القانون».

وخلص الدكتور البرغوثي إلى أن تعاليم الإسلام التي حثت العربي علي نبذ العصبية القبلية والأنانية المفرطة لم تتمكن من تهذيب عقليته، فظل سامرًا في عينه، إذ بعد وفاة النبي محمد (ﷺ) ارتد أكثر العرب عن الإسلام، وعادوا إلى حياة التشرذم والفرقة والتعصب القبلي المميت والتنازع على الرئاسة.

والسؤال الآن:

هل تختلف عقلية العرب في عصرنا هذا عن عقلية عرب العصور القديمة، أم لا يزال كثير من العرب يحملون الخصائص السلبية لعقلية أجدادهم الأوائل؟ سوف أهتم هنا بهذه الإجابة التي يؤكد فيها الدكتور محمد عابد الجابري في مؤلفه (تكوين العقل العربي). أن العقلية السائدة على تفكير وأحاسيس عرب اليوم هي عقلية الأعرابي، وهي عقلية تفتقر إلى عمق في التفكير والفلسفة، ويرى أن من الخطأ أن يظل العقل العربي مشدودًا إلى حضارة وثقافة اليد والرجل، وهي ثقافة فرضت على العقل العربي طريقة معينة في الحكم على الأشياء والتعامل معها، قوامها الحكم على الجديد بمقياس قديم.

* * *

obeikandl.com